المحاضرة التاسعة: بلنسكي والممارسة النقدية

- تمهيد.

1- بلنسكي والمرتكزات المعرفية.

2- كتاب "الممارسة النقدية" الهندسة البنائية والرهانات المعرفية.

3- التصور النقدي عند بلنسكي الثابت والمتغير.

4- بلنسكي وأسئلة القراءة.

- تمهيد:

تعددت النظريات السوسيولوجية السائدة في الفكر الروسي خلال ثلاثينات القرن التاسع عشر، وتباينت التصورات النظرية للفن عامة وللأدب على وجه الخصوص، واختلفت نتيجة ذلك المداخل النقدية ومرتكزاتها. وفي هذا المناخ الفكري الذي يعج بالرؤى والمنظورات، ظهر المفكر والناقد **بلنسكي**، ليعمّق تلك التصورات السائدة، ويطرح منظوره الفكري والنقدي المتعلق بالوشائج القائمة بين الفن والمجتمع، مهتما بالفكر الاجتماعي وبالأدب القومي الروسي، منطلقا من الحياة اليومية والثقافية في روسيا، ليحدث بذلك منعطفا واضحا في مسار النقد الواقعي عبر بلورته مسألة العلاقة بين النظرية والممارسة النقدية، التي تؤشر على الخصوصية النوعية لتصوره النقدي في إطار النقد الاجتماعي.

ونسعى في هذا الإطار إلى التعرف على المفكر الناقد **بلنسكي** والكشف عن خلفياته المعرفية، وإضافاته في النقد الاجتماعي، وتحديد رؤيته المنهجية، وتصوره للأدب، وتبيان مواقفه النقدية.

1- بلنسكي: النشأة والمرتكزات المعرفية:

بلنسكي نيسار بون غريغوريفتش (1811-1848) مفكر، وأديب وناقد ثوري ديمقراطي روسي، عارض التوجه الرومانسي ورفض بعض التصورات السوسيولوجية، كما كان الصوت المعارض للإقطاعية والاستبداد في روسيا، عمل في الصحافة، "بدأ بلنسكي نشاطه فيلسوفا، وتطور فكره الفلسفي من مقولات عصر النهضة الأوروبي إلى الفكر الثوري الديمقراطي، ومن المثالية الألمانية عند شيلنغ وهيغل إلى المادية الروسية"[1].

[1]-قضماني، رضوان: بلنسكي (غيساريون غريغوريفتش)، الموسوعة العربية، www.arab-ency.com.

ويعد **بلنسكي** في طليعة النقاد السوسيولوجين الذين انتبهوا إلى العلاقة بين الفن والمحمولات الايديولوجية والاجتماعية، راجع معطيات النقد السائد آنذاك، ليصحح مساره عبر تجاوز هناته، وقد خلق "ثروة أدبية هائلة، فكتب أربعة عشر مجلدا في زمن يقارب أربعة عشر عاما. لقد مارس بيلنسكي نشاطه النقدي من عام 1834 إلى عام 1948، فأثر في هذا الوقت القصير تأثيرا كبيرا في تطور الأدب الروسي القومي. وفي كل تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي"[2]. ومن أهم أعماله "الأماني الأدبية"، و"رسالة إلى غوغول"، و"الممارسة النقدية".

2- كتاب "الممارسة النقدية" الهندسة البنائية والرهانات المعرفية:

يعكس هذا الكتاب المنظور النقدي ومرتكزاته للناقد **بلنسكي** بوصفه رائدا من رواد النقد الواقعي في الفكر النقدي الروسي، له عميق الأثر في تطوير مسار هذا التوجه النقدي خصص هذا الكتاب لمقاربة نصوص كل من الشاعر الروائي الروسي **بوشكين** والروائي والمسرحي الروسي **غوغول** والشاعر **ليرمانتوف** ، بوصفهم أصواتا إبداعية روسية تنقل عالم الواقع إلى عالم المتخيل، علاوة على تخصيصه مساحة في هذا الكتاب لتقديم نظرة حول الأدب الروسي عام 1847، فقد اتخذ **بلنسكي** من الأدب الروسي متنا لتقديم رؤيته النقدية الجديدة التي تنسجم والواقعية الاشتراكية بوصفها مدرسة نقدية آمن بمبادئها. ويقوم هذا الكتاب على صعيد البناء المعماري على قسمين إثنين؛ القسم الأول مداره مقاربة الأعمال الإبداعية **لبوشكين**، وخصص القسم الآخر لمحاورة أعمال كل من **غوغول، وليرمانتوف** من جهة، ورصد خصوصية الكتابة الإبداعية في الأدب الروسي عام 1847 من جهة أخرى. فعبر هذا الكتاب بلور **بلنسكي** تصوره النقدي، محاورا مسائل فكرية، وقضايا معرفية ونقدية متعلقة بعلاقة الواقع الاجتماعي، والحياة الاجتماعية المعاصرة بالفن، كما يكشف أيضا عن

---

[2]-بيلنسكي: الممارسة النقدية، تر:فؤاد مركسي، مالك صقور، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1982، ص: 05.

إضافاته النوعية في الحقل النقدي، والمتمثلة في دعوته إلى ضرورة الاهتمام بالممارسة النقدية للنص الإبداعي بوصفها مرحلة تحليلية تؤطرها ضوابط معرفية تحددها النظرية، وتطرح مفاهيم إجرائية تساعد على تفكيك النص الأدبي، واستجلاء خصوصيته النوعية على الصعيدين الجمالي والمرجعي، كما يلح أيضا على مبدإ المواءمة بين إواليات النظرية وضرورة استثمار الكفاءات الأدائية للعدة المفاهيمية أثناء الممارسة النقدية، وهذا ما نستشفه عبر كتابه هذا، إذ إنه يرصد حدود النظرية، ويشغّل أدواتها لمقاربة الأعمال الإبداعية.

ففي هذا الكتاب "تتجلى للقارئ العربي والكاتب والناقد العربي ممارسة النقد الأدبي على أعمق وأبهى صورها، سواء من خلال ما قاله بيلنسكي في يوشكين، أو من خلال ما قدمهُ أيضا في ليرمانتوف وغوغول، وهذا الكتاب يرسم بدقة بالغة تلك العلاقة الشديدة الخصوصية والتعقيد بين النظرية والممارسة في النقد الأدبي"[3]. وبهذا المعنى فقد أحدث **بلنسكي** منعرجا حاسما في تاريخ النظرية النقدية في الفكر النقدي العالمي.

3- أسس التصور النقدي عند بلنسكي: الثابت والمتغير

شيّد **بلنسكي** مشروعه النقدي إن صح القول، أو رؤاه النقدية على جملة من الأطروحات الفكرية المستمدة من الفلسفة المادية الجدلية بصورة عامة. والتي طرحها في مجلاّت عدة نذكر منها مجلتي "تلسكوب" و"زابيسكي"، كما ورد ذلك في مقدمة كتابه "الممارسة النقدية"، وقد ارتهن طرحه بتحقيق أهداف معرفية مؤداها تقديم إجابات عن تساؤلات فرضها الواقع الراهن، متعلقة بماهية الكتابة، وبمهمة النقد، وكنه الفن ودوره، صورة الكاتب الحقيقي، إذ إن "أهم الأفكار التي طرحها بلنسكي وحافظ عليها في كل فترة نشاطه الأدبي، كانت متصلة صلة وثيقة بدور الفن الاجتماعي، فقد طالب الشعر، ....-بل- يقدم أعمالا إبداعية مستمدة من المهمات الرفيعة والقيمة التي تخدم الإنسان، وعلى الأدب -يقول بلنسكي- بل الفن عموما، أن يربي شعور الكراهية تجاه كل اضطهاد وتعسف. وعليه أن

[3]-المرجع السابق، ص: 188.

يعبر عن آمال الشعب وآلامه ويساعد في تكوين الأسس الاجتماعية العادلة"[4]. بهذا المعنى فقد أسس **بلنسكي** رؤيته النقدية على ضرورة الاهتمام بالدور الاجتماعي للفن عموما وللأدب على وجه الخصوص بوصفه تعبيرا عن الحياة، وعلى إلحاحه بضرورة معالجة النصوص الإبداعية للقضايا الاجتماعية، وتجسيدها تحولات المجتمع.

و قد عارض الناقد **بلنسكي** في كتابه " الممارسة النقدية" الشعر الرومانسي من حيث بناؤه الفكري، ودعوته الشعراء إلى ضرورة الامتياح من معين المجتمع والحياة اليومية، والالتزام بالتعبير عن واقع الشعوب، وتشكيل ونظم قصائد ذات نزوع اجتماعي أخلاقي، والعمل على تعميق الوعي لدى الأفراد بقيمة العدالة الاجتماعية. تؤشر هذه المعطيات على اهتمامه بالمرجعية الاجتماعية للنصوص الإبداعية. وحرصا منه على صياغة تصور نظري للأدب، فقد اهتم إلى جانب ما تم ذكره بالتحولات التاريخية التي شهدها الأدب الروسي، خاصة الأدب الوطني السابق لنصوص الروائي والشاعر الروسي **بوشكين**، بغية الوقوف على الخصائص الجمالية والفكرية لذلك الأدب، ليسعفه ذلك في تقديم قراءة منتجة لنصوص **بوشكين** الإبداعية، التي أحدثت خلخلة في بناء النص الأدبي الروسي.

ويحصر **بلنسكي** ضمن السياق ذاته مهمة النقد الأساسية، والتي تكمن في دراسة "موضوع العمل الفني ومن ثمة دراسة أهمية الشاعر وجوهر شعره، والسعي إلى فهم موضوع إبداعه"[5]. وتأسيسا على هذا فإنه يجعل من المضامين قطب الرحى أثناء كل مقاربة للنص الأدبي، فعلى الناقد رصد مستويات النص الاجتماعي، واستجلاء مدى واقعيتها، وبناء على ذلك تتحدد أهمية الشاعر من عدمها، ويُفهم نصه. ففي ضوء دراسته الأدب الروسي يرى بأن عظمة الكاتب تكمن في "تصوير الواقع تصويرا صادقا..... فعلى الكاتب لكي يكون

---

[4]–المرجع السابق، ص: 07.

[5]–المرجع نفسه، ص: 10.

عظيما أن يطرح آراءه بحرارة وإيمان عميق"[6]. يفضي بنا قول **بلنسكي** إلى التأكيد على دعوته الصريحة إلى تبني الواقعية تيارا أدبيا ومدرسة نقدية، فهو على اقتناع عميق بضرورة تجسيد وتصوير الواقع تصويرا صادقا، مستلهما في هذا الطرح تصور نظرية الانعكاس النص الأدبي، ويجعل عظمة المبدع مرتهنة بمدى إيمانه بآرائه، ووعيه بوظيفته وعمقه في رصد المظاهر المجتمعية، ومعالجته الواقع تجسيدا للعلاقة الجدلية بين الفرد وعالمه بحس نقدي.

واللافت للنظر أن **بلنسكي** علاوة على معارضته المدرسة الرومانسية، وما ذهبت إليه من إعلاء للذات، وانسحاب من الواقع، فقد قدّم نقدا للنظريات التقليدية والراهنة التي أطرت/ وتؤطر الأدب الروسي، وأكد على أهمية الواقعية الطبيعية التي لقيت انتقادا كبيرا من لدن خصومه آنذاك، بوصفها تبالغ في تصوير الواقع تصويرا سطحيا، إذ انتصر لها، مؤكدا أن النصوص الإبداعية قد تجاوزت بعض النظريات الراهنة آنذاك، مشيدا بالأدب في المدرسة الطبيعية، إن كان "ثمرة الأفكار الواعية، ظهر كبدعة، وبدأ بالمحاكاة، لكنه لم يتوقف عند ذلك، بل سعى كي يصبح أصيلا وشعبيا. ومن الاتجاه البلاغي انطلق ليكون واقعيا وطبيعيا"[7]. فمن المعالم المتغيرة في منظوره، والجديدة عن التصورات السوسيولوجية السابقة والراهنة، بلورته مصطلح الشعبية الذي يقصد به تصوير الواقع، وتجسيد المظاهر المجتمعية بدقة، هذا المصطلح الذي أعده جوهر الدراسات النقدية الواقعية، وهكذا فقد ناقش **بلنسكي** قضايا متعلقة "بجوهر الفن، ودوره الاجتماعي وطبيعة الصدق الفني، ومحتوى أهمية مفهوم الشعبية للفن، وأول من تصدى لنظرية الفن للفن، إذ يعد الحياة أهم موضوع للفن من خلال انتمائه لنظرية الفن للحياة التي آمنت بها الماركسية..... ويرى أن الفنان يعيد خلق الحياة،

---

[6]–المرجع السابق، ص: 18.

[7]–المرجع نفسه، ص: 175.

وأكد على شعبية الأدب، وفضح الشعبية الكاذبة التي تعبر عن حياة الفئات الدنيا فقط، بوصف الفن هو المعبر الحقيقي عن الجمال"[8].

4- بلنسكي وأسئلة القراءة:

قدم **بلنسكي** في إطار مشروعه النقدي قراءات نقدية لأدباء روسيين، متجاوزا -كما ذكر ذلك في كتابه سابق الذكر- عجز النقد السائد الذي يرى بأنه لم يستطع فهم النصوص الناضجة في الأدب الروسي، فاهتم بالتجربة الإبداعية لكل من **بوشكين، وليرمونتوف، وغوغول**، إذ جعل من النقد "عاملا مهما في حياة المجتمع الروحية"[9]. وعلى هذا الأساس عالج مؤلفات **بوشكين** في دراسة موسومة بـ "مؤلفات الكسندر بوشكين" مقارنا بينها وبين الظواهر الأدبية السابقة والمعاصرة له، وكذلك قارن بينها وبين أعمال إبداعية من الأدب الأوروبي كما ورد ذلك في مقدمة كتابه، ففي سياق دراسته أشعاره، انتهى إلى أن شعره "صادق صدقا مدهشا في تصويره للواقع الروسي، سواء أكان تصور الطبيعة الروسية أو [أم] الطبائع الروسية"[3].

يتضح من هذا القول النقدي بأن النص الأدبي في تصوره نص ايديولوجي، يصور الواقع بصدق وبدقة، لذلك نجده يهتم بالمضامين، محددا تيمات قصائده التي تتراوح بين الحب، والصداقة. إلى جانب ذلك فقد تتبع على صعيد الممارسة النقدية مدى تحسس **بوشكين** المظاهر الاجتماعية، وتعبيره عن القيم الفكرية واليومية في المجتمع الروسي. وإذا انتقلنا إلى مقاربته النص الروائي "يفغيني أو نيغنين" **لبوشكين** الذي أعدّه أهم أعماله الإبداعية، عبره يعكس رؤيته للعالم، يلاحظ أنه قد ركز في نقده على المضامين وعلى خصوصيات شخصية المؤلف، وعلاقته بالواقع، والأسلوب السردي، إذ يرى بأنها رواية "من

---

[8]-الزيدي، جواد: علم الجمال الماركسي وصورة فهم العالم. www.iraqicp.com. يوم: 2021/04/01.

[9]-بلنسكي: الممارسة النقدية، ص: 07.

3-المرجع نفسه، ص:07

حيث الشكل تمتاز بأعلى الدرجات الفنية الرفيعة، أما من حيث المضمون فعيوبها نفسها تشكل قيمتها العظيمة"[10]. وبهذا فقد جمع بين الشكل والمضمون في قراءته هذه الرواية.

كما استنطق **بلنسكي** ضمن جهوده النقدية النصوص الشعرية للشاعر الروسي **ليرمانتوف** بالطريقة ذاتها مركزا على المضامين وعلى الحمولات الإيديولوجية والاجتماعية، إذ يرى بأن نصوصه قد قدمت إجابات "عن قضايا الحياة ومعضلاتها المعاصرة الكبرى"[11]. وفي هذا النطاق أيضا عكف على تحليل أعمال الشاعر والروائي الروسي **غوغول**، إذ اهتم بالبعد الفكري في أعماله، والوقوف على خصائصه النوعية في كتابة الشعر والقصة والرواية، ومكانته في الأدب الروسي، ففي سياق دراسته رواية "النفوس الميتة"، التي عكس من خلالها الواقع الروسي، يرى بأنها رواية "كشفت عن التناقضات،...و [أنها] أهم عمل كتب عن الحياة الاجتماعية الروسية"[12].

وقد قارن بين الأعمال الأدبية **ليوشكين ولغوغول** هذا الأخير الذي يجسد مرحلة نضج للأدب الروسي، إذ أعده "رائد لمدرسة أدبية جديدة هي المدرسة الغوغولية، عرفت فيما بعد باسم المدرسة الطبيعية"[13]. أي الواقعية الطبيعية الذي كان **بلنسكي** قائدها الفكري.

وختاما ننتهي إلى التأكيد على إسهامات الناقد الروسي **بلنسكي** في تطوير النقد الاجتماعي، إذ اتخذ من النصوص الإبداعية الروسية عينة لاقتراح تصوره النقدي الذي أسسه على "النظرة التاريخية–الاجتماعية إلى الإبداع الفني، وحكم على أهمية الأعمال الفنية بقدر ما تعكس هذه الأعمال الفنية الوقائع الحياتية بعمق وبصدق وبقدر ما تتطابق ومتطلبات الحياة"[14]، أي إنه تمثل المنهج التاريخي الاجتماعي في النقد الأدبي، وشعرية

---

[10] –المرجع السابق، ص: 51.

[11] –المرجع نفسه، ص: 13.

[12] –المرجع نفسه، ص: 19.

[13] –المرجع نفسه، ص: 19.

[14] –المرجع نفسه، ص: 06.

الأعمال الأدبية في تصوره تلك التي تُضَمِّن المظاهر الاجتماعية، وتعبر عن القيم الفكرية واليومية، وتصور آمال الشعوب وآلامها تصويرا صادقا، وعلى الناقد أن يكشف عن المضامين الفكرية، وعن القضايا التي لها علاقة بالواقع الاجتماعي. ولعل الإضافة النوعية التي تميز بها **بلنسكي** تكمن في طرحه مسألة العلاقة المنسجمة بين النظرية والممارسة النقدية.